﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٥٣﴾ [الروم: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الإصـــرارُ على كـفـرانِ النِّـعـمِ من سماتِ موتى الـقـلـوبِ وصَـمِّ الأسماعِ وعُـمْيِ العيونِ

لمّا عَلَّمَ اللّهُ تعالى رَسولَهُ أنْواعَ الأدِلَّةِ وأصْنافَ الأمْثِلَةِ، ووعَدَ وأوعَدَ ولَمْ يَزِدْهم دُعاؤُهُ إلّا فِرارًا، وإنْباؤُهُ إلّا كُفْرًا وإصْرارًا، بل تمادوا في إصْرارِهِمْ عَلى تَجْديدِ الكُفْرِ[1]، فكان ذلك دَليلًا عَلى خِفَّةِ أحْلامِهِمْ، وسوءِ تَدَبُّرِهِمْ، لذلك كلِّه مثّل اللّه جلّ اسمه للكفار المعاندين بِثَلاثَةِ أصْنافٍ مِنَ النّاسِ، هم: الموتى والصم والعمي، فلَيْسَ في قُدْرَتِه ﷺ إسْماعُ الَّذينَ لا حَياةَ لَهُمْ، أو مَوْتى القُلوبِ، إسْماعًا يَنْفَعُهُمْ، ولَمّا بَدَأ بِفاقِدِ حاسَّةِ السَّمْعِ لِأنَّها أنْفَعُ مِن حَيْثُ إنَّ الإنْسانَ إنَّما يُفارِقُ غَيْرَهُ مِنَ البَهائِمِ بِالكَلامِ، أتْبَعَها حاسَّةَ البَصَرِ مُشيرًا، إلى أنه ﷺ ليس بِموجِدٍ لَهم هِدايَةً وإنْ كانوا يَسْمَعونَ، ولَمّا كانَ ذَلِكَ كِنايَةً عَنْ إيغالِهِمْ في الكُفْرِ، بَيَّنَهُ بِبَيانِ أنَّ المُرادَ مَوْتُ القَلْبِ وصَمَمُهُ وعَماهُ لا العَمَى الحَقيقيُّ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾: (سمع) أصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ، مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ بفتح السين وكسرها: الذِّكْرُ الجَميلُ، ويُقالُ سَماعٍ بِمَعْنَى اسْتَمِعْ، ويُقالُ سَمِعْتُ بِالشَّيْءِ، إذا أشَعْتُهُ لِيُتَكَلَّمَ بِهِ[3]، والسَّمْعُ: قوّة في الأذن به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 124 - 125.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

يدرك الأصوات، ويُعَبَّرُ تارةً بالسمّع عن الأذنِ، وتارةً عن فعلِه كالسَّماعِ نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: 212]، وتارةً عن الفهمِ، وتارةً عن الطّاعةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: 31]، وكلٌّ موضع أثبت اللّه السّمع للمؤمنين، أو نفى عن الكافرين، أو حثَّ على تحرّيه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتّفكر فيه، ومعنى المقصود بالآية: لا تُفْهِمُهم، لكونهم كالموتى في افتقادهم القوّة العاقلة بسوء فعلهم التي هي الحياة المختصّة بالإنسانيّة[1].

2) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: (صمّ) صَمَّ يَصَمُّ وصَمِمَ، بإظْهارِ التَّضْعيفِ نادرٌ، صَمّاً وصمَماً وأصَمَّ وأصَمَّهُ اللّهُ بِمَعْنَى صَمَّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسّة السّمع[2]، والمعنى المحوري انسداد سُموم الشيء بالنفاذ فيها بغلظ واستواء ظاهره بذلك[3]، وبه يوصف من لا يُصغي إلى الحقّ ولا يقبله، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وكانوا سامعين ناطقين مبصرين، لكن لما لم يسمعوا القرآن ولم يقرؤوه ولم ينظروا في دلالاته جُعلوا كذلك، وليتهم كانوا فاقدين لهذه الحواس خاصة إنما المصيبة في فقدان تلك البصائر، وقال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: 71]، والصُّمُّ البُكْمَ: رُؤوسَ الناسِ، جَمْعُ الأصَمِّ، وهو الَّذي لا يَسْمَعُ، وأراد بِهِ الَّذي لا يَهْتَدي ولا يَقْبَلُ الحَقَّ مِنْ صَمَمِ العَقل لا صَمَمِ الأُذن[4].

3) ﴿وَلَّوْاْ﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقَالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، وقولهم تَولَّى إذا عُدّيَ بنفسِه اقتضى معنى الولايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع منه[5]، وإذا عدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، ومنه قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63]، والتَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20]، والتَّوْلِيَةُ: الرُّجوعُ مِن حَيْثُ أتى، وكلُّ (تولى عن) فهي بمعنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا، والحال تُبيِّن ذلك غالبًا نحو ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: 10][6].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (سمع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صمم).
(3) جبل المعجم الاشتقاقي: (صمم).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).

4) ﴿مُدْبِرِينَ﴾: (دبر) أصْلُ هَذا البابِ أنَّ جُلَّهُ في قياسٍ واحِدٍ، وهو آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِهِ[1]، والدُّبُر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: عَقبُه ومُؤَخَّرُه[2]، وجعلْتُ كلامَهُ دَبْرَ أذُني، أي: أعْضَيْتُ عنه وتَصامَمْتُ[3]، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: 16]، وقال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدامهم وخلفهم، ومنه أدبارُ السُّجودِ: وهيَ أواخرُ الصلوات، و﴿مُدْبِرِينَ﴾ جمع مُدبر، وهو هنا: من يَبعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ نفورًا من الاستِماعِ وإعراضًا عن الهداية والرشد[4].

5) ﴿ٱلْعُمْىِ﴾: (عمي) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَترٍ وتَغطيَةٍ، مِن ذَلِكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَينَينِ كِلتَيهِما، والفِعلُ مِنهُ عَميَ يَعمَى عَمًى، ورَجُلٌ عَمٍ، إذا كانَ أعْمَى القَلْبِ؛ وقَوْمٌ عَمونَ، ويَقولونَ في هَذا المَعْنَى: ما أعْماهُ، ولا يَقولونَ في عَمَى البَصَرِ: ما أعْماهُ؛ لِأنَّ ذَلِكَ نَعْتٌ ظاهِرٌ يُدْرِكُهُ البَصَرُ[5]، والعَمَى يقالُ في افتقادِ البصرِ والبصيرةِ، ويقالُ في الأوّل: أعْمَى، وفي الثاني: أعْمَى وعَمٍ، وعلى الأوّل قولُه: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾ [عبس: 2]، وعلى الثاني ما وردَ من ذمِّ العَمَى في القرآن نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، بلْ لم يُعدّ افتقادُ البصر في جَنْبِ افتقادِ البصيرة عَمًى[6]، والمراد بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ هنا الكفّار الَّذين أعرَضُوا عن سُبل الهدايَة.

6) ﴿ضَلَلَتِهِمْ﴾: (ضلّ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو ضَياعُ الشَّيْءِ وذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالَةُ بِمَعْنًى[7]، والضَّلالُ: فَقْدُ ما يوصِّل إلى المطلوبِ، أو: سُلوكُ طَريقٍ لا يوصِّلُ إلى المَطْلوبِ[8]، أو: العدولُ عن الطَّريق المُستقيم، ويُضادُّه الهداية، ويقال: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، والضَّلالُ من وجه آخر ضربان: ضَلالٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دبر).
(3) الجوهري، الصحاح: (دبر).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (دبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمى).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (عمى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).

في العلوم النَّظريّة، كالضَّلالِ في معرفة اللّه ووحدانيَّته، ومعرفة النّبوّة، وضَلالٌ في العلوم العمليَّة، كمعرفة الأحكام الشَّرعيَّة التي هي العبادات، والضَّلالُ البعيدُ إشارةٌ إلى ما هو كفر محض[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أثر الضلال على المعرضين أشد من أثر فقدان الحواس

يَقولُ تَعالَى ذكره: فإنَّك يا محمَّدُ، لا تَجعَلُ لَهُم أسماعًا يَفهَمونَ بها عَنكَ ما تَقولُ لَهُم، وإنَّما هَذا مَثَلٌ مَعناهُ: فَإنَّكَ لا تَقدِرُ أن تُفهِمَ هَؤُلاءِ المُشرِكينَ الَّذينَ قَد خَتَمَ اللّهُ على أسماعِهِم، فَسَلَبَهُم فَهمَ ما يُتلَى عَلَيهِم مِن مَواعِظِ تَنزيلِهِ، كَما لا تَقدِرُ أن تُفهِمَ المَوتَى الَّذينَ قَدْ سَلَبَهُمُ اللّهُ أسْماعَهُمْ، بِأنْ تَجْعَلَ لَهُم أسماعًا، وكَما لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ الَّذينَ قَد سُلِبوا السَّمعَ الدُّعاءَ، إذا هُم ولَّوا عَنكَ مُدبِرينَ، كَذَلِكَ لا تَقدِرُ أن توفِّقَ هَؤُلاءِ الَّذينَ قَد سَلَبَهُمُ اللّهُ فَهمَ آياتِ كِتابِهِ، لِسَماعِ ذَلِكَ وفَهمِهِ، وما أنْتَ يا مُحَمَّدُ بِمُسَدِّدٍ مَنْ أعْماهُ اللّهُ عَنِ الاستِقامَةِ، ومَحَجَّةِ الحَقِّ، فَلَم يوفِّقهُ لِإصابَةِ الرُّشدِ، فَصارِفُهُ عَن ضَلالَتِهِ الَّتي هو عَلَيها، ورُكوبِهِ الجائِرَ مِنَ الطُّرُقِ، إلى سَبيلِ الرَّشادِ، يَقولُ: لَيسَ ذَلِكَ بِيَدِكَ ولا إلَيكَ، ولا يَقدِرُ على ذَلِكَ أحَدٌ غَيري، لِأنّي القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما تُسمِعُ السَّماعَ الَّذي يَنتَفِعُ بِهِ سامِعُهُ فَيَعقِلَهُ، إلّا مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا، لِأنَّ الَّذي يُؤمِنُ بِآياتِنا إذا سَمِعَ كِتابَ اللّهِ تَدَبَّرَهُ وفَهِمَهُ وعَقِلَهُ، وعَمِلَ بِما فيهِ، وانتَهَى إلى حُدودِ اللّهِ، الَّذي حَدَّ فيهِ، فَهو الَّذي يَسْمَعُ السَّماعَ النّافِعَ، فَهُمْ خاضِعونَ لِلّهِ بِطاعَتِهِ، مُتَذَلِّلونَ لِمَواعِظِ كِتابِهِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غلبةُ الكفرِ على أحوالِ المشركينَ حائلٌ دونَ وصولِ الهداية الربانية

دلالةُ التعبير بالفاءِ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لِلتَّرْتيبِ عَلى قَوْلِهِ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ضلل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 524 - 525.

﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ المُفيد أنَّ الكُفْرَ غالِبُ أحْوالِهِمْ؛ لِأنَّهم بَيْنَ كُفْرٍ بِاللهِ وبَيْنَ إعْراضٍ عَنْ شُكْرِهِ، أوِ الفاءُ فَصيحَةٌ تَدُلُّ عَلى كَلامٍ مُقَدَّرٍ، أيْ: إنْ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهم وساءَكَ اسْتِرْسالُهم عَلى الكُفْرِ؛ فَإنَّهم كالمَوْتى، وإنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى، وهَذه مَعْذِرَةٌ لِلنَّبي ﷺ، ونِداءٌ عَلى أنَّهُ بَذَلَ الجُهْدَ في التَّبْليغِ[1].

فائدةُ التوكيدِ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ عن مسارعةِ الكفّار لتجديدِ كفرِهم وشركِهم

جاءَ التوكيد في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بحرف التّوكيد، وبالجملة الاسميّة، وبإعادة المسند إليه مُضمرًا في الفعل ﴿تُسۡمِعُ﴾، وذلك لبيانِ اختصاصِه سبحانَه بالهدايةِ، فلا يَقْدِرُ عليها أحدٌ سواه، فإنَّ مباردةَ الكفّارِ لتجديدِ كفرِهم وشركِهم لأدنى ابتلاءٍ في أرزاقهم حائلٌ منيعٌ دون سيرِهم في طريقِ الهدايةِ، حتى كأنَّهُم أصبحوا موتَى وهُم بعدُ أحياء، فجاء مَوْقِعُ حَرْفِ التَّوْكيدِ فيه كَمَوْقِعِهِ في التَّعْليلِ بِالجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَهُ، وهَذا عُذْرٌ لِلرَّسولِ ﷺ وتَسْلِيَةٌ لَهُ[2]، فأكَّدَهُ لِأنَّهم يُنْكِرونَ أنْ يَكونَ حالُهم كَذَلِكَ، والنَّبيُّ ﷺ شَديدُ السَّعْيِ في إسْماعِهِمْ والجُهْدِ في ذَلِكَ[3].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

بيانُ شدَّةِ حرصِ النبيِّ ﷺ على قومِه

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك بيانٌ لشدَّةِ حرصِه على هدايةِ قومِه وتبليغهم رسالة ربه ودعوتهم إلى الإسلام، وفي تخصيص الخطاب له كذلك ﷺ تسليةٌ له عن إعراضِهم وإمعانِهم في الكفرِ والضَّلالِ.

دلالة النفي بـ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾:

نفيُ استطاعةِ النبيِّ إسماعَ الكفارِ إسماعَ هدايةٍ وإرشاد

جاءت ﴿لَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نافيةً، وهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125 - 126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 125.

متوسّطة بين المسند إليه - وهو ضمير النّبيّ ﷺ - وبين المسند الفعليّ ﴿تُسۡمِعُ﴾، والأصل أن يفيد هذا تقوية الحكم، وقد يُفيد القصر بالقرائن، ولا قرائن هنا، ولذلك أفاد التّوكيد هنا نفيَ استطاعةَ النبيِّ ﷺ على إسماعِ الكفارِ إسماعًا تُرْجَى منه هِدايَتُهم ورشادُهم، لأنَّهُم في حكم المَوتَى، الَّذينَ فقدوا حواسَّهم، ومنها حاسةُ السَّمعِ في المقامِ الأوَّلِ.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع في ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾:

استمرارُ الكفّار على كفرهم ونفي إمكانية تبدُّلهم

خصَّ النظمُ الحكيمُ نفيَ السمع تحديدًا بالذكر في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لأنَّ إدراكَ الكلامِ المُفْهِمِ المُبين بالسماعِ المنصتِ المتدبِّرِ هو أولَى ما تميَّز به جِنسُ الإنسانِ عن جنسِ الحيوانِ والجمادِ، فنصَّتِ الآيةُ الكريمةُ على عدم سماعِهم؛ لأنَّهم أشبهوا الجمادَ في قساوةِ قلوبِهم وإمعانِهم في الضَّلالِ والعصيانِ، وتَنَكُّرِهم لنعم اللّه بمجردِ الابتلاءِ، دون تثبُّتٍ أو تمهُّلٍ.

بلاغةُ المجازِ في التعبير بـ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

كلُّ من أعرضَ عن سماعِ القرآنِ فلم يصلْهُ هديُه ميّتُ القلبِ جامدُ الوجدان

عبَّر النَّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ عن أولئك الذين يسارعون في الكفر وجُحود النِّعم بـ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بمجاز الاستعارة، فاستعيرَ الموتُ لِلْقَوْمِ الَّذينَ لا يَقْبَلونَ القَوْلَ الحَقَّ ويُكابِرونَ مَن يَقولُهُ لَهم، فشُبِّهوا بالمَوتَى عَلى طَريقَةِ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيّة بجامع انْتِفاءِ فَهْمِهِمْ مَعانيَ القُرْآنِ، إذ إنَّ أثرَ القرآن يعودُ في بعضِ وجوهِه على ما يَشْتَمِلُ عَلَيهِ مِنَ المَعاني المَقبولَةِ لَدى أهلِ العُقولِ السَّليمَةِ، وهي المَعاني الَّتي يُدرِكُها ويُسَلِّمُ لَها مَن تَبلُغُ إلَيهِ ولَو بِطَريقَةِ التَّرجَمَةِ بِحَيثُ يَسْتَوي في إدْراكِها العَرَبيُّ والعَجَميُّ وهَذا أثَرٌ عَقْليٌّ، فالمُشْرِكونَ شُبِّهوا بِالمَوْتى بِالنَّظَرِ إلى إعراضهم عن هذا الأثَرِ الجليل، ونَفْيُ الإسْماعِ فيهِ تَرشيحٌ لِلاسْتِعارَة، لِانْتِفاءِ مُعالَجَةِ إبْلاغِهِمْ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34 - 35.

نكتة التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ و﴿ٱلصُّمَّ﴾:

التّعريف قد يكون للجنس أو للعهد

أفاد التَّعريف بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الجنسيّة، أي جنس الموتى وجنس الصّمّ، ويمكن أن تفيد (أل) الاستغراق ليعمّهم الموت أو الصَّمم جميعًا، فإنّه ﷺ لا يملك هدايتهم، ويمكن أن يكون التّعريف للعهد على اعتبار أنّ المقصود بهم كفّار قومه.

دلالة تكرار نفي السماع في ﴿وَلَا تُسۡمِعُ﴾:

تأكيدُ عُتوّ الكفّارِ وموتِ قلوبهم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ عاطفةٌ، وهي تأكيدٌ لمبلغِ هؤلاءِ الكفّارِ في العُتوِّ في الشركِ وإنكارِ البعثِ وجحودِ النِّعم، فكانَ من المناسبِ عطفُ هذه الجملةِ على سابقتِها؛ لأن الكفرَ موتُ القلبِ، كما أن العصيانَ مرضُه، فمن مات قلبُه بالكفر بطل سمعُه بالكلية، فلا ينفعُه النصحُ أصلًا، ومن مَرِضَ قلبُه بالعصيانِ فيسمعُ سمعًا ضعيفًا كالمريض فيحتاجُ إلى المعالجةِ فى إزالته حتى يعود سمعه[1].

وكرّرَ النظمُ الحكيمُ نفيَ السمعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، بعد نفيه في قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ولَمْ يُكْتَفَ بأنْ يُقالَ: (إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى ولا الصُّمَّ)، وذلك لتأكيدِ إعراضِهم عن الحقِ، وأنَّهُم مهما تأتِهم من آيةٍ بيِّنةٍ فإنَّهُم مستكبرون معرضون.

بلاغة المجاز في ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

تشبيهُ الكفّار بالصم لازم لانتفاء الأثر البلاغي للقرآن في أسماعهم

التعبيرُ بنفي سماع الصّمّ للدُّعاء استعارة ثانية لِلقومِ الّذين لا يقبلون القول الحقّ ويُكابِرون من يقولُهُ لهم، فقد شُبِّهوا أوّلًا بالموتى على طريقةِ الاستِعارةِ التّصريحيّة بجامع انتفاءِ فهمِهم معاني القُرآنِ، وشُبِّهوا بالصُّمِّ كذلك في انتفاءِ أثرِ بلاغةِ ألفاظِهِ

(1) البروسوي، روح البيان: 7/ 56.

عن نُفوسِهم، واختُصّتِ الاستعارةُ الثانيةُ بنفي أثرِ دلالةِ القرآنِ في "نظمِهِ وبلاغتِهِ على أنّهُ خارِج عن مقدرةِ البُلغاءِ العربِ، وهذا أثر لفظيّ وهو دليلُ الإعجازِ، وهو خاصّ بالعربِ مُباشرةً، وحاصِل لِغيرِهِم مِن أهلِ النّظرِ والتّأمُّلِ إذا تدبّروا في عجزِ البُلغاءِ مِن أهلِ اللِّسانِ الّذي جاء بِهِ القُرآنُ، فهؤُلاءِ يوقِنون بأنّ عجز بُلغاءِ أهلِ ذلِك اللِّسانِ على مُعارضتِهِ دالّ على أنّهُ فوق مقدرتِهِم؛ فالمُشركون شُبِّهوا بالموتى بالنّظرِ إلى الأثرِ العقلي، وشُبِّهوا بالصُّمِّ بالنّظرِ إلى الأثرِ البلاغي، فحصلتِ استعارتانِ"[1].

نكتةُ تقديمِ نفيِ إسماعِ الموتى في الآية:

قدّم النّظمُ الحكيمُ نفي إسماعِ الموتى على نفي إسماع الصمِّ؛ لأنّ إرشاد الميِّتِ مُحال، والمُحالُ أبعدُ مِن المُمكِنِ، ثُمّ إرشادُ الأصمِّ صعب؛ فإنّهُ لا يسمعُ الكلام وإنّما يفهمُ ما يفهمُهُ بالإشارةِ لا غير، والإفهامُ بالإشارةِ صعب، ثُمّ إرشادُ الأعمى أيضًا صعب، فقال أوّلًا: لا تُسمِعُ الموتى، ثُمّ قال: ولا الأصمّ، ولا تهدي الأعمى الّذي دون الأصمِّ[2].

التّدرُّجُ في نفي الإسماعِ من المُحالِ إلى المُمكنِ من بلاغةِ القرآنِ الآسرة

التوجيهُ البلاغيُّ لقراءةِ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

قرأ ابنُ كثير: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾ [3]، ووجه ذلك أنَّه إخبارٌ عن هؤلاء بأنَّهُ لا سماعَ لهم، فجُعِلوا فاعِلين، فكما أنَّ الأصَمَّ لا يَسْمَعُ ما يُقال لهم، فكذلك هؤلاء لا يَنْتَفعون بما يُقال لهم ممّا يبلِّغهم به الرَّسول ﷺ مِنَ الوَحْي، وقرأ باقي العشرَةِ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[4] على أنَّهُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه لا يقدر على إسماعهم؛ لأنَّهم صُمٌّ[5]، وفيه دلالة على بلادةِ حسِّهم وقسوةِ طِباعهم.

مَنْ ماتَ قلبُه ذَهَبَ سَمعُه وإن كانَ ينبِضُ بالحياةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34 - 35.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.
(5) مكّي، الكشف: 2/ 166 - 167.

نكتةُ التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

نفي السمعِ عن الموتى وإمكانِ سماعِ الصمِّ للأصوات الهائلة

نصَّ النَّظمُ الكريمُ على المفعولِ الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ على قراءة الجمهور، ولَمْ يَنُصَّ على ذلك عندما نفى الإسماعَ عن المَوْتى؛ لأنه لَمّا كانَ المَيِّتُ لا يُمْكِنُ أنْ يَسْمَعَ، لَمْ يُذْكَرْ لَهُ مُتَعَلِّقٌ، بَلْ نَفى الإسْماعَ مطلقًا، أيْ لا يَقَعُ مِنكَ إسْماعٌ لَهم ألْبَتَّةَ لِعَدَمِ القابِليَّةِ[1]، وذكر المتعلق مع الأصم وهو ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾؛ لِأنَّ الأصَمَّ قَدْ يَسْمَعُ الصَّوْتَ الهائِلَ كَصَوْتِ الرَّعْدِ القَوِيِّ، ولَكِنَّ صَوْتَ الدّاعي لا يَبْلُغُ ذَلِكَ الحَدَّ، فَقالَ: إنَّكَ داعٍ لَسْتَ بِمُلْجِئٍ إلى الإيمانِ، والدّاعي لا يُسْمِعُ الأصَمَّ الدُّعاءَ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وإزاحة للهمِّ عن قلبه بأنَّه قد فعل كل ما في وسعه، فبَيَّنَ سبحانه أنَّهُ لا قُدْرَةَ لَهُ ﷺ عَلى هُدى مَن أضَلَّهُ اللَّهُ، فَإنَّ الهُدى والإضْلالَ بيَدِهِ ﷻ وحْدَهُ[2].

وأفاد تعريف الدّعاء هنا جنس الدّعاء والأصوات، وفي هذا مزيد مبالغة في عدم انتفاعهم وتعطيلهم أدوات المعرفة ونوافذها عن سماع الحقّ.

نكتةُ التقييدِ بالجملةِ الشَّرطيةِ ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾:

إدبارُ الكفّارِ عند سماعِ دعوةِ الحقِّ أوغلُ في انتفاءِ الإسماع

قيَّدَ النظمُ الحكيمُ نفيَ إسماعِ الصُّمِّ بزَمانِ تَولّيهِمْ مُدْبِرينَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ لِأنَّ تِلْكَ الحالَةَ أوغَلُ في انْتِفاءِ إسْماعِهِمْ؛ لِأنَّ الأصَمَّ إذا كانَ مواجِهًا لِلْمُتَكَلِّمِ قَدْ يَسْمَعُ بَعْضَ الكَلامِ بِالصُّراخِ ويَسْتَفِيدُ بَقِيَّتَهُ بِحَرَكَةِ الشَّفَتَيْنِ، فَإذا ولّى ولا يَكونُ نَظَرُهُ إلى المُشيرِ؛ فَإنَّهُ لا يَسْمَعُ ولا يَفْهَمُ[3]، فأفادَ التقييدُ ههنا بيانَ كمالِ سوءِ حالِ الكفرة، والتنبيه على أنَّهُم جامعون لخصلتَي السوءِ: نُبُوّ أسماعهم عن الحقِ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كانتْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 16/ 484.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131، والشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 463.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.

فيهِم إحداها لَكَفَتْهُم، فكيفَ وقد جمعوهما؟[1]، وأشار البقاعيُّ إلى أنَّ في التَّقييد بزمان التَّولي ترجية في إيجادِ الإسْماعِ إذا حَصَلَتْ لَهم حالَةٌ مِنَ اللَّهِ تُقْبَلُ بِقُلوبِهِمْ[2].

سرُّ التعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

تحقُّقُ وقوعِ تولّي الكفّارِ وإدبارِهم عن سماعِ الحقّ

جاءَ الشرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ باستعمال أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ التي تفيد تحققَ الوقوعِ غالبًا، دون أداة الشرط (إن) التي تفيدُ مجردَ تعليقِ الشرط دون تحققِ الوقوعِ، وذلك إشارة إلى تحققِ إعراضِهم وتولّيهم وانصرافِهم قصدًا وعمدًا عن السماع كلَّما دعاهم ﷺ إلى الإيمانِ، أي أن إدبارهم وانصرافِهم عن السَّماعِ متحقِّقٌ ولا ريبَ، فهو حكايةٌ لحالِهم مع النبي ﷺ، وكثرةِ إدبارِهم وتولّيهم عن سماعِ الحقِّ وإعراضِهم عن الهُدى والرشادِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّولية مادَّةً وصيغةً:

إعراضُ الكفّار واستكبارُهم عن سماعِ دعوةِ الحقِّ

عبَّرَ النظمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ باستعمالِ الفعلِ ﴿وَلَّوْاْ﴾ الذي يفيدُ الإعراضَ وتركَ القرب، ومن خصائصِ التَّولّي أنَّه قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاءِ والائتمارِ، فأفاد استعمال هذا الفعل ههنا معنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا عن سماع الحقِّ، وقد جاء الفعلُ في صيغة المُضيِّ ليدلَّ على تحقُّقِ التوّليةِ وتوكيدِها، وأنَّهُم في نفورٍ دائمٍ عن سماعِ الحقِّ، وأُسْنِدَ الفعلُ ﴿وَلَّوْاْ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ للدلالةِ على اجتماعِهم على التولّي والإعراضِ، وتظاهرِهم عليهم وتألُّبِهم ضد الإسلام وهديه.

نكتةُ تقييدِ الفعلِ ﴿وَلَّوْاْ﴾ بالحال:

نفورُ الكفّارِ عن الاستماعِ للحقِّ إعراضًا عن الهدايةِ والرشد

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ التَّولّي في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ بالحالِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾، جمعًا مُصاغًا من اسم الفاعل (مُدْبِر)، وهو

(1) البروسوي، روح البيان: 7/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.

هُنا: مَنْ يَبْعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ نفورًا من الاِسْتِماعِ وإعراضًا عن الهداية والرشد، وذلك لِتَتْميم النفي وتَأكيدِه؛ فَإنَّهم مَعَ صَمَمِهِمْ عَنِ الدُّعاءِ إلى الحَقِّ؛ مُعْرِضونَ عَنِ الدّاعي مولّوْنَ عَلى أدْبارِهِمْ[1]، وجاءت الصياغة على وزن الفاعل للدّلالة على الثباتِ والدوام، فكأنَّ الإدبارَ عن سماعِ دعوةِ الحق قد أصبح سمةً راسخةً في نفوسهم لا تنفكُّ عنهُم ولا ينفكون عنها.

نكتةُ الجمعِ بين التَّولية والإدبار:

تأكيدُ إعراضِ المشركين ونفورِهم عن دعوةِ الحقّ

جمع النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ بين الوصف بالتَّوليةِ والوصفِ بالإدبار، تأكيدًا لإعراضهم واستكبارهم عن سماع دعوة الحقِّ، وضَميرا ﴿وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ عائِدانِ إلى الصُّمِّ، وهو تَتْميمٌ لِلتَّشْبيهِ، حَيْثُ شُبِّهوا في عَدَمِ بُلوغِ الأقْوالِ إلى عُقولِهِمْ بِصُمٍّ ولَّوْا مُدْبِرينَ، فَإنَّ المُدْبِرَ يَبْعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ فَكانَ أبْعَدَ عَنِ الاِسْتِماعِ وقبول الهدى[2].

بلاغةُ المتشابهِ اللفظيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

إثباتُ البعثِ قضيَّةٌ مركزيَّةٌ في القرآنِ عامَّةً والمكّيِّ منه خاصَّةً

تكرّرتْ هاتانِ الآيتانِ بنفس ألفاظِهما في سورتي النملِ والروم، وهما قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، ففيما عَدا الفاءِ في سورة الروم، فالآيَة نَظيرُ الَّتي في آخِرِ سورَةِ النَّمْلِ[3]، ويرجع هذا التشابهُ أو التطابقُ اللفظيُّ بين السورتين للتشابهِ الكبيرِ بين أغراضِ السورتين، وخاصَّةً قضيَّةَ إثباتِ البعثِ والنُّشورِ، ومماراةَ الكفّار وجدالهم بشأنها، وهي قضيَّةٌ محوريَّةٌ في القرآن عامَّةً، والقرآنِ المكّيِّ خاصَّةً، ولمّا كانت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 124.

السورتانِ مكيَّتَيْنِ، وتكرّر ذكرُ فضلِ القرآنِ في السورتين كلتيهما، كانَ تَكرارُ هاتينِ الآيتينِ مناسبًا لأغراضِهما.

نكتة العطف بالواوِ في ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾:

جاءتِ الواوُ هُنا لتعطفَ جملةَ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ على جملة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، فكَرَّرَ النَّظم الحكيم تَشْبيهَ المُشْركينَ في إعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ بِأَنْ شُبِّهوا في ذَلِكَ بِالعُمْيِ بَعْدَ أَنْ شُبِّهوا بِالمَوْتى وبِالصُّمِّ عَلى طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ، إطْنابًا في تَشْنيعِ حالِهِمُ المَوْصوفَةِ، وحَسَّنَ هَذا التَّكْريرَ هُنا ما بَيْنَ التَّشْبيهَيْنِ مِنَ الفُروقِ مَعَ اتِّحادِ الغايَةِ؛ فَإِنَّهم شُبِّهوا بِالمَوْتى في انْتِفاءِ إدْراكِ المَعاني الَّذي يَتَمَتَّعُ بِهِ العُقَلاءُ، وبِالصُّمِّ في انْتِفاءِ إدْراكِ بَلاغَةِ الكَلامِ الَّذي يَضْطَلِعُ بِهِ بُلَغاءُ العَرَبِ، وشُبِّهوا ثالِثًا بِالعُمْيِ في انْتِفاءِ التَّمْييزِ بَيْنَ طَريقِ الهُدى وطَريقِ الضَّلالِ مِن حَيْثُ إنَّهم لَمْ يَتَّبِعوا هَدْيَ دينِ الإسْلامِ، والغايَةُ واحِدَةٌ وهي انْتِفاءُ اتِّباعِهِمُ الإسْلامَ[1]، وضلالهم عن الحقِّ والرشادِ، حتى إنَّهُم يخبطونَ خبطَ عشواءَ في ظلماتِ الشركِ.

تشبيهُ الكفار بالعُمْي ترشيحٌ للتشبيهين السابقينِ بالموتى والصمَّ

نكتةُ النَّفي بـ(ما) في ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾:

جاءتْ (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ نافيةً، وهي إما عاملة عمل ليس أو لا عمل لها[2]، وتفيد عندما تتقدَّم على المُسند إليه والمُسند الفعليّ التّخصيص؛ وهي هنا دالَّةٌ على نفي إمكانِ الهدايةِ الخاصَّةِ الموصِّلةِ إلى الإيمانِ والرَّشادِ عن النَّبي ﷺ، وهو نفيٌ يفيدُ اختصاصَ الهدايةِ للإيمانِ باللّه سبحانه وحدَه، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّه قد بلَّغَ رسالةَ ربِّه ﷻ، وليس له أن يَبْخَعَ نفسَه أسفًا على عدم هدايتِهم للحقّ.

اختصاص الهدايةِ للإيمانِ باللّه سبحانه وحدَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 20/ 36.

دلالةُ الخطابِ بالضميرِ ﴿أَنتَ﴾:

جاء ضميرُ الخطابِ ﴿أَنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾؛ لتخصيصِ النفيِ عن النبيِّ ﷺ تسليةً لخاطرِه بأنَّه قد أدَّى الأمانةَ التي وكَّلَه اللهُ بها وهي التبليغُ، وأنَّ الهدايةَ أمرٌ من أمورِ الأُلوهيَّة، وفيه كذلك تشريفٌ وإيناسٌ له ﷺ بالإشارةِ إليه، وتوكيدٌ لنفيِ إمكانِ الهدايةِ الخاصَّةِ عن أي أحدٍ بعده بدلالةِ نفيها عنه ﷺ، وفيه كذلك رفعٌ لاحتمالِ أن يكونَ أحدٌ سواه مقصودًا بالخطاب، فنفيُ الهدايةِ الخاصَّةِ عن النَّبيِّ - وعن أحد من البشر بالتبعيَّة - يشيرُ إلى اختصاصِه سبحانَه بالهدايةِ، وهو أمرٌ في علمِ اللهِ وحدَه ﷻ، لمْ يُخَوِّلْه لأحدٍ من خلقِه.

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ تشريفٌ وتسليةٌ لخاطِرِه الكريمِ

نكتة وقوع الباء في خبر (ما):

دخلت الباءُ على خبرِ (ما) العاملة عمل ليس في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾ لتأكيد النفي، فوُرودَ حرفِ الباءِ يُفيد توكيدِ نفيِ الهدايةِ، وأنَّه سبحانَه مختصٌّ وحدَه بالهداية، ونفي إمكان الهداية عن النبيِّ ﷺ، والمعنى: لَيسَ في وُسْعِكَ إدْخالُ الهُدى في قَلْبِ مَن عَمِيَ عَنِ الحَقِّ ولَمْ يَنْظُرْ إلَيْهِ بِعَيْنِ قَلْبِهِ[1]، وفي التعبيرِ بنفيِ إمكانِ الهدايةِ ترْشيحٌ للاستعارةِ في الآيةِ السابقة، إذ هو أيْضًا مُستَعارٌ لِبَيانِ الحَقِّ والصَّوابِ لِلنّاسِ[2].

ليسَ في وسعِ أحدٍ من الناسِ إدْخالُ الهُدى في قَلْبِ مَن عَمِيَ عَنِ الحَقِّ

توجيهُ القراءاتِ في ﴿بِهَٰدِ﴾:

قَرَأ الجُمْهورُ: ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾، وهو اسْمُ فاعِلٍ مُضافٌ، وقرأ حَمْزَةُ: ﴿تَهْدِ﴾، مُضارِعُ هَدى، و﴿ٱلْعُمْىَ﴾ بالنَّصْب على المفعولية؛ وكذا قرأ الأعْمَشُ، وطَلْحَةُ، وابْنُ وثّابٍ، وابْنُ يَعْمُرَ، في غير المتواتر[3]، والتعبيرُ بالمضارعِ في قراءة

مجموعُ القراءتَيْنِ يفيدُ نفيَ إمكانِ الهدايةِ من غيرِ اللهِ سبحانَه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 16/ 484.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339، وأبو حيان، البحر المحيط: 16/ 483.

حمزة نفيٌ للهدايةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ على ما تقتضيه صيغةُ المضارعة، ونفيُهُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قراءةِ الجمهورِ يُفيدُ الثَّباتَ والدوامَ، ومجموعُ القراءتين يشيرُ إلى نفيِ إمكانِ الهدايةِ لغيرِ اللّهِ بأيِ وجهٍ من الوجوهِ، وإثباتِ اختصاصِها به سبحانَه.

بلاغةُ الاستعارةِ في التعبيرِ بـ ﴿ٱلْعُمْىِ﴾:

المقصودُ من الإبصارِ الاعتبارُ والاستبصارُ ومن لا يهتدي فهو بمنزلةِ العَمي

شَبَّهَ النظمُ الحكيمُ الكفّارَ منكري البعث بالعُمي في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾؛ لتعاميهم عن الحقِّ وعدمِ انتفاعِهم بأبصارِهم، فحذفَ المُشَبَّهَ وصرّح بالمشبَّه به على طريقِ الاستعارةِ التصريحيَّة الأصليَّة، والمراد بهذه الاستعارةِ تسليةُ النَّبيّ ﷺ وجبرُ خاطرِه في أداءِ دعوتِه؛ والمعنى: كما انتفَى عنْكَ إمكانُ إسماعِ الصُّمِّ دعوةَ الحقِّ، فكذلك لا تَقْدِرُ أن تخلقَ للعمي أبصارًا يهتدون بها، فأنت لا تَقْدِرُ أن توفِّقَ هؤلاء للإيمانِ، فلا تحمِّلْ نفسَك عناءَ ما اختصَّ اللّهُ به نفسَه، وفي جعلهم عميًا إيماءٌ إلى أنه لا يَقْدِرُ على إسماعِهم وهدايتِهم إلا اللّهُ سبحانَه، كما لا يَقْدِرُ على خلقِ قوةِ الإسماعِ في الصُّمِّ والإبصارِ في العُمْيِ إلا اللّهُ وحدَه، ففي الاستعارةِ تأكيدٌ لاختصاصِه سبحانَه بالهداية.

دلالةُ التعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾:

الانصرافُ عن الحقِّ ومنهجِ الصَّوابِ ضربٌ من ضروبِ العَمى والاضطرابِ

التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ من قولِه تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾؛ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ: المَعْهودون بعماهُم وانصرافِهم عن جادةِ الحقِّ ومنهجِ الصوابِ، وهم الذين اتَّصَفَتْ نفوسُهم بالاستكبارِ عن الحقِّ وجحودِ نِعم اللّه تعالى لأدنى ابتلاء أو اختبار، فهي صفاتٌ متأصِّلةٌ في نفوسِهم أدَّت بهم إلى التعامي عن الحقِّ وإن كانت آياتُه واضحات بيِّنات.

نكتةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ﴾:

قيَّدَ النظمُ الحكيمُ نفيَ الهداية بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ﴾،

والمعنى المقصود: فما أنت بموجِدٍ الهدايَةَ عَلى الدَّوام في قُلوبِ العُمْي حال ضلالتهم مُزيلًا لَهم وناقلًا ومُبْعِدًا عَنِ الطَّريق، بِحَيْثُ تَحْفَظُهم عَنْ أنْ يُزالوا عَنْها أصْلًا، فَإنَّ هَذا لا يَقْدِرُ عليه إلّا الحَيُّ القَيّومُ، فـ﴿عَن﴾ مُتَعلِّقةٌ بالهدايَةِ باعْتِبارِ تَضَمُّنِها مَعْنى الصَّرْفِ[1].

التَّقييدُ بنفي الهدايةِ حالَ الضَّلالةِ تأكيدٌ لاستكبارِ الكُفّارِ عن طريقِ الحقِّ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ يَتَضَمَّنُ اسْتِعارَةً مَكْنِيَّةً قَرينَتُها حاليَّةٌ، فشَبَّهَ الدّينَ الحَقَّ بالطَّريقِ الواضِحَةِ، وإسْنادُ الضَّلالَةِ إلى سالِكِيهِ تَرْشيحٌ لَها وتَخْييلٌ، والضَّلالَةُ أيْضًا مُسْتَعارَةٌ لِعَدَمِ إدْراكِ الحَقِّ تَبَعًا لِلاسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ، وأُطْلِقَتْ هُنا عَلى عَدَمِ الاهْتِداءِ لِلطَّريقِ، وضَميرُ ضَلالَتِهِمْ عائِدٌ إلى العُمْي.

الكفّارُ عاجزونَ عن إدراكِ الحقِّ بسببِ إمعانِهم في طريقِ الضَّلالةِ

والجارُّ والمجرور ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بأحد أمرين: أحدهما: أنَّه متعلق بـ ﴿بِهَٰدِ﴾ وعُدّي بـ ﴿عَن﴾ لتضمُّنِه معنى يَصْرِفهم، والثاني: أنه متعلقٌ بالعُمْي لأنَّك تقول: عَميَ عن كذا[2]، وفي ذلك تأكيدٌ لاختصاصِ الهدايةِ به سبحانه.

فائدةُ التعبيرِ بالضلالةِ دون الضلالِ:

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بـ(الضلالة) دون (الضلال) في قوله تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، مع أنَّ التعبيرَ بالضلالِ يُشعر بكثرةِ ضلالِهم بخلاف (الضلالة)، فهي دالَّةٌ على الوحدةِ والقلَّةِ، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيمُ ذلك لوجهين: أحدهُما: أنَّ الذَّمَ وقَعَ عليهم بوقوعِهم في الواحدة، فكيفَ إذا وقَعوا في الضلالاتِ الكثيرةِ الكثيفةِ، فهم عندئذٍ أشدُّ ضلالًا وأكثرُ إمعانًا في الكفرِ والجحودِ، والآخرُ: أن التعبيرَ بـ(الضلالة) أبلغُ في التشنيعِ عليهم، من جهةِ أنَّهُم بدّلوا الهدى الكثيرَ والرَّشادَ الشريفَ بشيءٍ حقيرٍ في القدر قليلٍ في المقدارِ[3].

سفهُ الكفارِ متمثلٌ في استبدالِ الهُدَى الواضحِ بالضلالةِ الحقيرةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 125، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 642، والخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 941.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 58.

نكتةُ إضافةِ الضَّلالةِ إلى ضميرِ الكفّار:

شـدَّةُ تمكُّنِ الضلالةِ من نفوسِ الكفّارِ صارفٌ لهم عن الهُدى والحقِّ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الضلالةَ إلى الكفّار في قولِه تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾، ولم يقلْ (عن الضلالة) أو (عن الضلال)، وذلك للدَّلالةِ على اختصاصِها بهم، وشدَّةِ تَمَكُّنِ الضلالةِ من نفوسِهم وعقولِهم، فكأنَّ الضلالةَ أصبحتْ ملكًا لَهم، وجزءًا لا يتجزأُ منهُم، فلا تنفكُّ عَنهم ولا ينفكونَ عَنها، وما ذاكَ إلا لشدَّةِ تَمَسُّكِهم بالضلالةِ وإنكارِهم للحقِّ والهُدى والرَّشادِ[1].

بلاغةُ القصر في: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

مهمةُ الرَّسولِ ﷺ إسماع من كُلِّفَ بدعوتهم

جاءَ أسلوبُ القصرِ في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قصرًا مستفادًا من النفي والاستثناء، وهو من قصر الصّفة على الموصوف، وهو قصر إضافيّ، وقد خرجت طريقة القصر هنا عن الظّاهر، إذ إنّه يُؤتى بأسلوب القصر بالاستثناء بعد النّفي لمن كان منكرًا، أو لمن يُنزّل هذه المنزلة، وغرضُ الخروج عن الظّاهر هنا في إنزال غير المنكر منزلة المنكر طمأنةُ النَّبيِّ ﷺ والتَّسرية عنه، وهو يَقْتَضي انحصارَ مهمةِ النبيِّ ﷺ في إسماعِ من سبقت له من اللّه بشائر الرحمة وبوادر الهداية، وفي ذلك تسليةٌ له ﷺ وإراحةٌ لقلبه من عناءِ مخاطبتِهم، ومحاولةِ إسماعِهم رغمَ نفورِهم وإعراضِهم واستكبارِهم ومبادرتِهم لجحد نِعَمِ اللّه لأدنى ابتلاءٍ أو امتحانٍ في أنفسِهم أو أرزاقِهم.

معنى ﴿إِن﴾ ولطيفةُ إيثارِها على (ما):

شِـدَّةُ الإعـراضِ والـتَـولّي تقتضي استخدامَ أقوى أساليبِ النفي

عدلَ النظمُ الحكيم عن استعمالِ (ما) إلى استعمالِ ﴿إِن﴾ في هذا السياق الذي يقتضي شدَّة النَّفْي في قولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنّ (إن) آكدُ في النَّفي من (ما)، يدل على ذلك اقترانُها الكثيرُ بـ (إلّا) وهذا يعطيها قوَّةً وتأكيدًا، وقد وردت ﴿إِن﴾

(1) السيوطي، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 3/ 422 - 423.

النافيةُ في القرآنِ الكريم في عشرة ومائة موضع، كلها مقترنةٌ بـ (إلّا) أو (لَمّا) عدا سبعَ آيات، فدلَّ هذا على قوَّتها في النفي، ومما يدل على ذلك أيضًا الاستعمالُ القرآنيُّ، فإنَّه يَستعملُ (إن) فيما فيهِ زيادةُ توكيدٍ في النفي[1].

بلاغةُ الكنايةِ بالإسماعِ عن الهدايةِ:

الاستماعُ الصادقُ المنصتُ أوَّلُ طُرقِ الهدايةِ

عبّرَ النظمُ الحكيمُ بالإسماعِ عن الهدايةِ في قولِه جلَّ اسمُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بدليلِ آخرِ الآية ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾، إذ المعنى: ما تُسْمِعُ سَماعًا يُجْدي السّامِعَ نَفْعًا إلا لمن الإيمانُ بآيات اللّه من شَأنِهم، وإيرادُ الإسْماعِ في النَّفْي والإثْباتِ دونَ الهدايَةِ مَعَ قُرْبِها بأنْ يُقالَ: (إنْ تُهْدي إلّا مَن يُؤْمِنُ)، لما أنَّ طَريقَ الهدايَةِ هو إسْماعُ الآياتِ التَّنْزيليَّةِ[2]، فهو أوَّلُ طريقِ الهدايةِ، إذ بعدَ سماعِ الأذنِ وتلقّي العقلِ يخشعُ القلبُ وتلينُ الجوارحُ فتدخلُ الهدايةُ إلى سويداءِ القلوب بأمر اللّه تعالى؛ لأنَّ المُؤْمِنَ تَرِدُ عَلى قَلْبِهِ أمْطارُ البَراهين، فَتُنْبِتُ في قَلْبِهِ العَقائِدَ الحَقَّةَ، ويَسْمَعُ زَواجِرَ الوعْظِ فَتَظْهَرُ مِنهُ الأفْعالُ الحَسَنَةُ[3].

علَّةُ التعبيرِ بالموصولِ وإفرادِه:

تفخيم شأن من يؤمن بآيات الله تعالى

جاءَ النظمُ الكريمُ باستعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ وصلته ﴿يُؤۡمِنُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وعدلَ عن صيغةِ اسمِ الفاعلِ (المؤمن)، فلم يَقُلْ: (إن تسمع إلا المؤمن)؛ لأنَّ التعبيرَ بالاسمِ الموصول أشدُّ دلالةً من التعبيرِ باسمِ الفاعل عن لصوق الصفة بصاحبها، إذ يشيرُ استخدامُ الاسمِ الموصولِ لِتَأصُّلِ الصفةِ في المتصف بها، فكأنه أصبحَ معروفًا بها بين الناس، فأضْحَت الإشارة إليه بها راسخةً ثابتةً، وأشارَ بالإفْرادِ في الشَّرْطِ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 200 - 201.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 132.

إلى أنَّ لَفْتَ الواحِد عَنْ رَأيِهِ أقْرَبُ من لَفْتِهِ وهو مَعَ غَيْرِهِ[1]، فضلًا عن أنّ مِن أغراض التّعبير بالاسم الموصول التّعظيم والتّفخيم لشأن مَن يؤمن بآيات اللّه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿يُؤْمِنُ﴾:

التعبيرُ بالمضارعة يشمل كل الأزمنةِ في الحالِ والاستقبالِ

جاءَ التعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ في قولِه جلَّ ثناؤه: ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، رغمَ أنَّ مقتضى الظاهرِ أن يكونَ التعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ، فيكونُ: (إنْ تُسْمِعُ إلّا مَن آمَنَ بآياتِنا فَهُم مُسْلمون)، وسرُّ ذلك أن التعبيرَ بالمُضارِعِ قدْ يُرادُ به الاسْتِقْبالُ الشّامِلُ لجَميعِ الأزْمِنَةِ، والاستقبال كَما يَكونُ بالنَّظَرِ لِزَمانِ الحُكْمِ والتَّكَلُّمِ يَجوزُ أنْ يَكونَ بالنَّظَرِ إلى عِلْمِ القائِلِ أيْضًا، فَيَشْمَلُ ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ هُنا مَن آمَنَ حالًا، كَما يَشْمَلُ مَن يُؤْمِنُ اسْتِقْبالًا[2].

نكتةُ إضافةِ (آيات) إلى ضميرِ العظمة:

تفخيمُ الآياتِ بإضافتها لضمير العظمةِ بيانٌ لجدارتها لأن تكونَ سببًا في الإيمانِ

أضاف النظمُ الحكيمُ الآياتِ إلى ضميرِ الجمعِ المعبّرِ عن التعظيمِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، إشارةً إلى أنَّهُم آمنوا بالآياتِ التي هي جديرةٌ بالتصديقِ والإذعانِ؛ لما لها من العظمة بانتسابها إلى اللّهِ تعالى، فاللّه تعالى هو الذي أنزلها، وقد أشار بعضهم إلى أن المراد بالآيات هنا القرآنُ الكريمُ، وفي ذلك بيانٌ لدوره في الهدايةِ، وأشار بعضُهم إلى أنَّها الآيات المَسْموعَة أو الآيات المَصْنوعَة[3].

بلاغة الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

الآياتُ هي سببُ إيمانِ المؤمنين وعلّةُ إقامةِ الحجّةِ على الكافرين

الباءُ في قوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ للسببيَّة لبيانِ أنَّهُم إنَّما آمَنوا بسبب نزولِ الآيات والتَّفَكُّرِ فيها والاعتبارِ بها، وهي الآياتُ التي يسمعُها ويتدبَّرُها كلُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 58.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 525، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.

من ألقى السمعَ وهو شهيدٌ، ويمكن أن تفيد الباء معنى الملابسة والإلصاق، وهو معنىً لا يكاد يفارقها، أي من كان إيمانه ملتبسًا بهذه الآيات لا ينفكّ عنها.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾:

قَوْلُهُ جلَّ اسمه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تَعْليلٌ لإيمانِهِمْ بها؛ كَأَنَّهُ قيلَ: فَإنَّهم مُنقادونَ لِلحَقِّ في كُلِّ وقتٍ، وقيلَ: مُخلِصونَ لِلَّهِ تَعالى مأخوذ مِن قَولِهِ تَعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 112]، وقيلَ: هو تَعْليلٌ لِما يَدُلُّ عليه الكَلامُ مِن أنَّهم يَسمَعونَ إسماعًا نافِعًا لَهُمْ[1].

الاستماعُ إلى آياتِ اللهِ بتدبُّرٍ وإنصاتٍ سبيلٌ للإسلامِ والانقيادِ لله

دلالةُ التعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿مُّسْلِمُونَ﴾:

عبّرَ النظمُ الحكيمُ عن سماتِ المهتدينَ بسماعِ الحقِّ بقولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أيْ: خاضِعونَ مُسْتَجيبونَ مُطيعونَ، أي: فَأولَئِكَ هُمُ الَّذينَ يَستَمِعونَ الحَقَّ ويَتبَعونَهُ، وهَذا حالُ المُؤْمِنينَ[2]، وفي تَوْحيدِ الضَّميرِ تارَةً وجَمْعِهِ أُخْرى رِعايَةٌ لِلَفْظِ ﴿مَن﴾ ومَعْناها، وأشارَ بِالجَمْعِ في الجَزاءِ إلى أنَّ هَذِهِ الطَّريقَةَ إنْ سُلِكَتْ كَثُرَ التّابِعُ[3]، فيؤازِرُ بعضُهم بعضًا على الإسلامِ.

الخضوعُ والانقيادُ للحقِّ أولُ صفاتِ المهتدين

دلالةُ التعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

استعملَ النظمُ الحكيمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قوله تباركَ اسمُه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، التي تفيد التّوكيد والثّبات، وعدلَ عن الجملةِ الاسميةِ ذاتِ الخبرِ الفعليِّ، فَلَمْ يَقُلْ (فَهُم يُسْلِمون)؛ للدلالةِ على ثباتِ المسلمينَ على إسلامِهم بعد سماعِ الآياتِ البيِّناتِ، وتمكّنه من قلوبِهم، إذ الجملةُ الاسميَّةُ التي كان المسند فيها فعليًّا تفيد تقوية الحكم، وذلك توكيدًا لبيان تحقُّقِهم بصفة الإسلام، حتى غَدَتْ صفةً ملازمةً لهم لا تنفكُّ عنهم.

ثباتُ المسلمينَ وتمكُّنُ الإسلامِ من قلوبِهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 11/ 39.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.

بلاغةُ المقابلةِ بينَ ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾ و﴿إِن تُسۡمِعُ﴾:

يتمثَّلُ الفارقُ الجوهريُّ بينَ الكفّارِ والمسلمينَ في الاستجابةِ لآياتِ الله

أبرزَت المقابلةُ بين قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وقولِه ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الفارقَ الجوهريَّ بين الكفارِ المعانِدينَ الجاحِدينَ، وبينَ المسلمينَ الخاضِعينَ المستسلمينَ لأمرِ اللّه، مُتَمَثِّلًا في قضيةِ الاستجابةِ لآياتِ اللّه سبحانَه، ففي حينِ كانَ موقفُ الكفّارِ الجحودَ والعنادَ لأدنى ابتلاءٍ أو اختبارٍ، كان سبيلُ المؤمنينَ هو التسليمُ والخضوعُ والاستجابةُ.

سرُّ العدولِ عن الجملةِ الفعليةِ إلى الجملةِ الاسميةِ:

إبرازُ شدَّةِ حرصِ الرسولِ ﷺ على هدايةِ قومِه

عُدِلَ في الجُمْلَةِ عَنْ صيغَتَيِ النَّفْيَيْنِ السّابِقَيْنِ في قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الواقِعَيْنِ عَلى مُسْنَدَيْنِ فِعْلِيَّيْنِ، إلى تَسْليطِ النَّفْيِ هُنا عَلى جُمْلَةٍ اسْميَّةٍ لِلدَّلالَةِ عَلى ثَباتِ النَّفْيِ، وأُكِّدَ ذَلِكَ الثَّباتُ بِالباءِ المَزيدَةِ لِتَأكيدِ النَّفْيِ، ووجْهُ إيثارِ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِهَذَيْنِ التَّحْقيقَيْنِ هو أنَّهُ لَمّا أفْضى الكَلامُ إلى نَفْيِ اهتِدائِهِم، وكانَ اهْتِداؤُهم غايَةَ مَطْمَحِ الرَّسولِ ﷺ، كانَ المَقامُ مُشْعِرًا بِبَقيَّةٍ من طَمَعِهِ في اهْتِدائِهِمْ حِرْصًا عليهِمْ، فَأُكِّدَ لَهُ ما يقطع طَمَعَهُ[1].

نكتة تعدّد التشبيهِ في الآيتين:

لكلِّ طائفةٍ من المشركينَ تشبيهٌ ألـيـقُ بحالِهم ومقامِهم

تعدَّدَ التّشبيهُ في الآيتينِ الكريمتينِ، ويمكنُ القول إنَّ تَعَدّد التَّشبيهِ مَنظورٌ فيهِ إلى اخْتِلافِ أحْوالِ طَوائِفِ المُشْرِكينَ، فَكانَ لِكُلِّ فَريقٍ تَشْبيهٌ، ويَحْصُلُ من جَميعِ ذَلِكَ تَشْبيهُ جَماعَتِهِمْ بِجَماعَةٍ تَجْمَعُ أمْواتًا وصُمًّا وعُمْيًا فَلَيْسَ هَذا من تَعَدُّدِ التَّشَبُّهِ لِمُشَبَّهٍ واحِدٍ كالَّذي في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 19][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 126.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهدايةُ والإرشادُ:

الإرْشاد إلى الشَّيْء هو التّنبيه على الشّيء والتبيين لَهُ، والهِدايَة هيَ التَّمَكُّن من الوُصول إلى الله، ويُقال أيْضًا: هداه إلى المَكْروه، كَما قالَ الله تَعالَى ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23]، والهدى: الدّلالَة؛ فَإذا كانَ مُسْتَقيمًا، فَهو دلالَة إلى الصَّواب، والإيمان هدى؛ لأنَّه دلالَة إلى الجنَّة، وقد يُقال: الطَّريق هدى، ولا يُقال: أرشده إلا إلى المحبوب، والراشد الَّذي صلح بِما فيهِ نَفسه مِمّا يبْعَث على الخَيْر، والرّاشد القابِل لما دلّ عليه من طَريق الرُّشد، والمُرشد: الهادي للخير والدّال على طَريق الرّشد، ومثل ذَلِك مثل من يقف بَين طَريقين لا يدْري أيهما يُؤَدّي إلى الفَرْض المَطْلوب، فَإذا دلَّه عليه دالٌّ فَقد أرشده، وإذا قبل هو قَول الدّال فسلك قصد السَّبيل فَهو راشد، وإذا بعثته نَفسه على سلوك الطَّريق القاصد فَهو رشيد، والرَّشاد والسداد والصَّواب حق من يعْمل عليه أن ينجو وحقّ من يعْمل على خِلافه أن يهْلك[1].

الإرشـادُ إشـارةٌ إلى أمرٍ محبوبٍ والهدايةُ التمكنُ من الوصولِ إلى الحقِّ

الضلال والتّيه:

أصل الضَّلال الهَلاك، ومِنْه قَوْلهم: ضلَّتِ النّاقة إذا هَلَكت بضياعها، وفي القُرْآن: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 10]، أي: هلكنا بتقطّع أوصالنا، ويُستَعْمل الضَّلال أيْضًا في الطريق كَما يُستَعمل في الدّين، فَيُقال: ضلَّ عَن الطَّريق إذا فارقه، ويُقال أيْضًا: ضلَّ عَن الثَّواب، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: 74]، والضَّلال بِمَعْنى الضّياع، يُقال: هو ضال في قومه، أي: ضائع، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: 7]، أي: ضائعًا في قَوْمك لا يعْرفونَ منزلتك، ويجوز أن يكون ضالًّا أي: في قوم ضالّينَ،

الـضـلال هـو الهلاك والضياع وأما التيه فهو التردُّد والحيرة

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.

فلا ينصرف الضَّلال إليه ﷺ، وأمّا التيه فجِنْسٌ مِنَ الحَيْرَةِ، والتّيهُ والتَّيْهاءُ: المَفازَةُ يَتيهُ فيها الإنْسانُ[1].

التولية والإدبار:

التَّوْلِيَةُ أنْ يولّي الشَّيْءَ ظَهْرَهُ والإدْبارُ أنْ يَهْرُبَ مِنْهُ

التَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، والتَّوْلِيَةُ: الرُّجوعُ مِن حَيْثُ أتى، أما الإدبار: فهو آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِهِ، فالتَّولية والإدبار بِمَعنَيَينِ مُختَلِفينَ، فالتَّوْلِيَةُ أنْ يولّيَ الشَّيءَ ظَهرَهُ، والإدبارُ أنْ يَهْرَبَ مِنْهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مُولٍّ مُدبِرًا ولا كُلُّ مُدبِرٍ مولّيًا، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾، فَلَو كانَ أصَمَّ مُقبِلًا لَم يَسمَعْ، فَإذا ولَّى ظَهرَهُ كانَ أبعَدَ لَهُ مِنَ السَّماعِ فَإذا أدبَرَ مَعَ ذَلِكَ كانَ أشَدَّ لِبُعدِهِ عَنِ السَّماعِ، ومِنَ الدَّليلِ على أنَّ التَّولّيَ لا يَتَضَمَّنُ الإدبارَ قَولُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144] فإنه بمعنى الإقبال[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ضلل) و(تيه)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 214 - 215.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 403.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»